

العالم الإسلامي في كتابات المستشرقين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر "مستقبل الإسلام" * لولفريد سكاون بلنت أنموذجاً

زكريا صادق الرفاعي

أستاذ مشارك، كلية التربية، جامعة المنصورة، مصر

الملخص

مما لا شك فيه أن الإسلام قد شكل خطراً كبيراً على أوروبا، خاصة إبان التوسع العثماني، وعلى الرغم من امتصاص الحضارة الغربية لهذا التهديد تدريجياً بمرور الوقت، فقد ظل التعامل معه في المستقبل أمراً مؤرقاً. وتحاول هذه الدراسة إلقاء الضوء على المقولات الرئيسة التي ضمنها W.S.Blunt في كتابه المهم "مستقبل الإسلام" الذي نشره عام 1882، وعلى الرغم من أن الكتاب المذكور هو تعبير عن قناعة بلنت الذاتية، فإنه كان - في نهاية المطاف - جزءاً من بنية الخطاب الأوروبي ولاسيما نخبة العصر الفيكتوري في بريطانيا تجاه الإسلام، وربما ظلت قيمته الكبرى تكمن في تجسيده للقضايا ذاتها التي ما برح بطرحها الاستشراق المعاصر على تنوع صورته في إزاء الإسلام.

مقدمة

مثل ظهور الإسلام منذ البداية تهديداً لأوروبا سرعان ما تفاقمت وتيرته تدريجياً مع اتساع رقعة الفتوحات الإسلامية على حساب الإمبراطورية البيزنطية⁽¹⁾، ولم تقتصر العلاقات بين العالم الإسلامي وأوروبا طوال العصور الوسطى على جانب بعينه وإنما طالت مختلف الجوانب السياسية والاجتماعية، وترك الحصاد العام لتلك العلاقات أثراً باقياً لدى الطرفين⁽²⁾.

وفي العصر الحديث لم يفتر اهتمام أوروبا بعالم الإسلام الذي ظل دوماً موطن جذب وجد البعض ضالتهم في رحابه على تباين أقدارهم من ساسة وقناصل وتجار ودارسين ومبشرين وجواسيس ومغامرين، وبطبيعة الحال كان لتقارير هؤلاء وكتاباتهم عن الإسلام وأهله ونظمه السياسية والاجتماعية أثر في وجدان الغرب بوعي أو من دون وعي، وربما تركت بالقدر نفسه تصوراً مماثلاً لدى المسلمين وإن تباينت دلالاته سلباً وإيجاباً⁽³⁾.

وربما كان "W.S.Blunt" (1840-1922) من أكثر الرحالة الإنجليز الذين حظوا بشهرة واسعة وبمزيد من الدراسة خلال العقدين الماضيين، وقد رأى البعض أنه ينتمي إلى ذلك النوع من المستشرقين المتطلعين إلى البحث عن جوانب لم تكتشف يصبح من خلالها الرحالة بطلاً ومغامراً⁽⁴⁾.

وينحدر بلنت - بحسب قوله - من إحدى الأسر المحافظة من أصحاب الضياع بجنوب إنجلترا، وقد انخرط في العمل السياسي، وهو في سن الثامنة عشرة ملحقاً بالوكالة البريطانية في أثينا، لمدة اثني عشر عاماً ظل متنقلاً في العمل بين الوكالات والسفارات البريطانية في أوروبا وأمريكا اللاتينية، ثم ترك الخدمة العامة بعد وفاة أخيه وتفرغ لإدارة شؤونه الخاصة باعتباره الوارث الوحيد لأموال أسرته في مقاطعة "سكس"، إلا أنه ظل محتفظاً بعلاقات ودية مع العاملين في دوائر الخارجية البريطانية⁽⁵⁾.

وقد بدأ بلنت رحلاته المتصلة صوب الشرق طلباً للراحة والاستشفاء في عام 1873؛ حيث طاف بتركيا ومصر وسوريا والعراق والهند، كما اخترق وسط

شبه الجزيرة العربية وشمالها في رحلة لم يقيم بها أوروبي من قبل⁽⁶⁾، وقد صحبته في معظم هذه الرحلات زوجته الليدي "آن بلنت" حفيدة الشاعر البريطاني الشهير "بيرون" (1788-1824)، وكان حصاد ذلك كله سلسلة من العلاقات لا حدود لها مع أبرز رجالات الشرق على اتساعه آنذاك، وفي مقدمتهم جمال الدين الأفغاني وتلاميذه خاصة الإمام محمد عبده.

ثم توالى كتاباته العديدة، من أبرزها "الهند في عهد ريون"، "التاريخ السري للاحتلال البريطاني لمصر"، "جوردون في الخرطوم"، ثم كتابه المهم "مستقبل الإسلام"⁽⁷⁾.

مستقبل الإسلام: البواعث والأهداف

ظهر هذا العمل أولاً على شكل سلسلة من المقالات نشرها بلنت في مجلة Fortnightly Review في صيف وخريف عام 1881، ثم صدرت تلك المقالات في كتاب مستقل في العام التالي، متضمناً خمسة فصول؛ تعلق أولها بالتوزيع الديموجغرافي للمسلمين وفقاً للإحصاءات المتاحة آنذاك، واسترسل الفصل الثاني في استعراض تطور الخلافة الإسلامية حتى العصر الحديث، وأبرز بلنت الدور الذي أداه الفقه الحنفي في الترويج والقبول للدولة العثمانية، وتصدى الفصل الثالث لاستعراض البدائل المختلفة لإيجاد خلافة عربية تحل محل الخلافة العثمانية المتداعية مفضلاً أن تكون مكة على - حد قوله - "الحاضرة الحقيقية للخلافة المنتظرة"، وتناول الفصل الرابع من الكتاب الدعوة لتجديد الفكر الإسلامي لمواجهة تحديات العصر، وجاء الفصل الخامس والأخير لرصد المصالح البريطانية في العالم الإسلامي وكيفية الحفاظ عليها في ظل السباق الاستعماري السائد⁽⁸⁾.

ودرستنا معنية بالوقوف على المقولات الرئيسة التي تضمنها كتاب مستقبل الإسلام، فهو وإن كان تعبيراً عن الرؤية الذاتية لبلنت، فإنه - في نهاية المطاف - جزء من البنية العامة للخطاب الأوروبي ولاسيما نخبة العصر الفيكتوري في بريطانيا تجاه الإسلام، ويجسد إلى حد بعيد ما يمكن تسميته

بالجواهر والعرض في بنية هذا الخطاب، وربما كانت قيمته الكبرى - في نهاية المطاف - أنه لا يزال غير منبت الصلة بالتيار الرئيس والسائد في الخطاب الأوروبي المعاصر تجاه الإسلام.

ولعل صلة بلنت الوثيقة بالشرق وما شاع عنه من مناصرته للقضايا الإنسانية بوجه عام وانغماسه المباشر في أحداث الثورة العربية في مصر، فضلاً عن معارضته العلنية لكثير من السياسات البريطانية - تعزز من اختياره أنموذجاً ملائماً للدراسة.

وفي مقدمته التي حملت تاريخ 15 يناير 1882 ذكر بلنت أن الباحث على مقالاته هو متابعة الأوضاع العامة الجارية آنذاك، وفي مقدمتها مقاومة الاحتلال الفرنسي في الجزائر، ونشاط الحركة الإسلامية المتصاعد بصفة عامة في شمال إفريقيا، كما أن مصر - بدورها - في حالة فوران بفضل نشاط الحركة الوطنية والاتجاهات الداعية إلى تجديد الفكر الديني، ومن ثم فإن الإسلام - بحسب رأيه - "يبدو متفضلاً في كل مكان"، ومن جهة أخرى فإنه أراد - على حد قوله - "وضع الحقائق التاريخية في نصابها أمام مواطنيه ليقدروا العواقب حق قدرها قبل أن تفاجئهم النتائج لاسيما الموقف في الهند".

ومن الوهلة الأولى بدا واضحاً أن خطاب بلنت موجه إلى النخبة السياسية، وإلى الرأي العام البريطاني في المقام الأول أيضاً، وعلى الرغم من أن الإسلام والمسلمين هم مادة الكتاب ومحور الحديث، فإن هاجسه الأول هو مصالح الإمبراطورية البريطانية التي اعتبرها في مهب الريح خاصة في آسيا، كما أن ما أسماه بحركة "الإحياء الإسلامي" لم تنل - في تقديره - ما تستحق من متابعة من دوائر صنع القرار ولا من النخبة المثقفة في بريطانيا⁽⁹⁾.

وذهب بلنت من خلال زيارته للقاهرة إلى أنها تمثل حركة التقدم الإسلامي، وأن علماء الأزهر يؤيدون بإخلاص الحركة الوطنية الراضية لتدخل الترك، وأن ما أسماه بـ "الإصلاح الليبرالي الإسلامي" بات يشق طريقه الآن على أسس سياسية واجتماعية واضحة⁽¹⁰⁾.

وأضاف بلنت في المقدمة أن متابعة الشأن الإسلامي تتطلب بالضرورة التعرض لمسألة الخلافة العثمانية، جازماً بوضوح أنه "يجب الاستعداد من الآن للحظة التي ستسقط فيها الخلافة، وأن ثمة حركة معارضة لها في مصر وشبه الجزيرة العربية"، مؤكداً أنه حال خلع السلطان عبدالحميد أو وفاته سيكون ذلك "إيذاناً بانتهاء الإمبراطورية، وعندها سيعود العقل العربي ليقود ويجدد الخلافة من جديد".

وفي ختام المقدمة أبدى بلنت اعتذاره للمسلمين؛ لأنه يتنبأ لهم بكارثة سياسية كبيرة في المستقبل القريب (يعني بها سقوط الخلافة)، ولكنه استدرك "بأن هذه هي الخطوة الضرورية للنهضة الروحية المرتقبة مبدئياً ثقته الشديدة بالإسلام ليس على المستوى الروحي فقط وإنما كنظام متكامل مؤكداً - على نحو خاص - الطابع السياسي للإسلام منذ البداية، مضيفاً أنه بذلك "يخدم أيضاً مصالح المسلمين بحديثه عن حقائق وضعهم الحالي".

وفيما يبدو أن تأكيد بلنت قرب سقوط الخلافة قد استمد خلفيته من الزيارة التي قام بها إلى ميناء جدة في ديسمبر عام 1880؛ حيث التقى القنصل البريطاني، وربما علم هناك - على نحو أو آخر - بالاتصالات السرية التي جرت بين شريف مكة آنذاك (الحسين بن محمد بن عون) (1877-1880) والحكومة البريطانية لخلق حكومة عربية معارضة للخلافة العثمانية⁽¹¹⁾.

وبنبذة حماسية مؤثرة اختتم بلنت مقدمته بالقول: "إن يوم الإمبراطورية قد ولى إلى غير رجعة، ولكن يوم الاستقلال الاجتماعي والسياسي سيكون هو القادم الأفضل، فالتنوير والإصلاح والاتحاد هي ما يحتاجه المسلمون وليس الخوف من التهديد السياسي لأوطانهم في مصر وشبه الجزيرة العربية وشمال إفريقيا"⁽¹²⁾.

وهكذا فإن الرؤية التي تبناها بلنت منذ البداية هي التبشير بخلافة عربية تحل محل الخلافة العثمانية المتداعية، معتبراً ذلك أهم خطوة لتحقيق باقي مفردات النهضة من استقلال وإصلاح وتنوير؛ حيث جعل كل ذلك مرادفاً وتالياً لسقوط الخلافة العثمانية، متناسياً في غمرة حماسه أن التهديد الغربي لعالم

الإسلام آنذاك لم يكن شبحاً يتوهمه المسلمون، بل حقيقة قائمة بالفعل؛ مما يشير التساؤل عن المقصود بالاستقلال والإصلاح المنتظر.

وإذا كان بلنت قد أفصح عن البواعث العامة التي دفعته لإصدار هذا الكتاب فقد كان علينا أن ننتظر حتى الفصل الخامس والأخير من كتابه لنقف على القضية المركزية التي كرس لها وقته وجهده؛ ففي عبارة موحية وكاشفة يقول: إن الإسلام - أو على حد تعبيره "المحمدية"⁽¹³⁾ - ليس رأياً أو منظمة وإنما هي حقيقة جغرافية وسياسية، وأكثر من ذلك فهي قوة ليس محايدة وإنما قد تكون صديقة أو معادية، وما لم نبلور موقفاً من الإسلام خلال السنوات العشر المقبلة فسينظر إلينا على أننا معادون للمسلمين"⁽¹⁴⁾.

ومن ثم فإن الدعوة لخلافة عربية والإصلاح والتنوير، هي مجرد أدوات وآليات لخدمة القضية الأهم، وهي كيفية التوصل إلى صيغة لطبيعة العلاقة وشكلها مع الإسلام كقوة يعتد بها في المستقبل المنظور، وهو في هذا قد جسد - بامتياز - الهاجس الرئيس للاستشراق الرسمي السائد آنذاك، وفي القلب منه إشكالية العلاقة المزمنة بين الإسلام وأوروبا؛ فلفترة طويلة اعتبر الإسلام رجة مأساوية دائمة لأوروبا خاصة إبان التوسع العثماني، وعلى الرغم من امتصاص الحضارة الأوروبية لهذا التهديد مع مرور الوقت⁽¹⁵⁾، فقد ظلت قضية التعامل معه أمراً مؤرقاً في المستقبل، وأفق تلك العلاقة محصور - في رأيه سلفاً - بين حدين متناقضين، هما العداء أو الصداقة ولا ثالث لهما.

وفي خطوة أولى لتقدير مفردات قوة الإسلام في المستقبل⁽¹⁶⁾ سعى بلنت - شأنه في ذلك شأن العديد من المستشرقين السابقين واللاحقين - لرصد التنامي الديموجغرافي للعالم الإسلامي باعتباره أحد هذه الجوانب، محذراً - في هذا الصدد - من خطأ حصر العالم الإسلامي في الحدود الرسمية للدولة العثمانية فحسب.

واستند بلنت في هذا الصدد إلى زيارته لميناء جدة خلال موسم الحج في ديسمبر عام 1880 معتبراً أنها المناسبة الملائمة لتقدير وفود الحجاج المختلفة، وقد اعتمد على جانب من الوثائق التي وجدها بجدة فضلاً عن وثائق القنصليات

المختلفة، كما استعان أيضاً - على حد قوله - ببعض الإحصاءات بالقاهرة ودمشق محاولاً في النهاية تقديم إحصاء تقريبي للمسلمين وفقاً لتلك المصادر ومقارنتها بالمصادر الغربية الأخرى، لينتهي إلى أن إجمالي عدد المسلمين - آنذاك - هو مائة وخمسة وسبعون مليوناً⁽¹⁷⁾.

وقد شدد بلنت - على نحو خاص - بالزيادة السكانية المتنامية لما أسماه بـ "الكومنولث الإسلامي في آسيا" معتبراً أن تطور المسلمين الاقتصادي المتزايد سيؤهلهم بقوة لأداء دور مهم في المستقبل⁽¹⁸⁾.

السلطان عبدالحميد والجامعة الإسلامية

لم يكن بوسع بلنت أن يغض الطرف عن قضية الجامعة الإسلامية⁽¹⁹⁾ باعتبارها واحدة من القضايا التي فرضت نفسها على الساحة، وكان لها صداها - آنذاك - في العالم الإسلامي وأوروبا، وقد مهد لذلك بحديث مستفيض عن الخلافة منذ ظهورها حتى قيام الدولة العثمانية، مشيراً - على نحو خاص - إلى دور الفقه الحنفي الذي وفر تسامحاً وأضفى الشرعية على الخلافة العثمانية⁽²⁰⁾.

ونوه بلنت بأن فكرة الجامعة الإسلامية قد بدأت في عهد السلطان عبدالعزيز (1861-1876)؛ حيث نجح بعض مستشاريه في لفت نظره إلى أهمية النفوذ الروحي للخلافة، وأن هذا الجانب هو الذي يؤمن لها قوتها ونفوذها، ليس داخل حدود الدولة العثمانية والعالم العربي فحسب وإنما في أرجاء العالم كافة، خاصة بين مسلمي الهند⁽²¹⁾.

كما أن هذه "الرابطة الروحية" تحتم على الخليفة تعيين نواب له بوصفه الإمام الأعظم، وأضاف بلنت أن السلطان الذي كان مبهوراً بهذا الحديث ولم تكن لديه فكرة عن أهمية المركز الروحي الذي يشغله في العالم الإسلامي قد سارع باستدعاء شيخ الإسلام، وشرع - على الفور - في إرسال بعثات إلى جميع الجهات، خاصة الهند، وعلى الرغم من أن النجاح كان محدوداً فإن مسألة الخلافة وأهميتها صارت شائعة ومعروفة ولاسيما من خلال الدور الذي

أدته مجموعة من الصحف، في مقدمتها "الجوائب" ومحررها البارز أحمد فارس الشدياق⁽²²⁾.

وفي رأي بلنت - وإن لم يذكر السبب - أن السلطان عبد العزيز لم يثبت أهليته ليكون على رأس الحركة الإسلامية فتم إقصاؤه⁽²³⁾، وسرعان ما دخل الحلبة السلطان عبدالحميد الثاني (1876-1909) "الذي كان مدركاً - بدوره - أن طوق النجاة الوحيد المتبقي أمامه هو اعتلاء سدة الحركة الإسلامية وأخذ زمام المبادرة، وكان ذلك تأجيلاً لساعة سقوط الدولة، وساعد على ذلك أن عبدالحميد كان على قناعة بدوره وراغباً فيه، وبدا ذلك واضحاً للمراقبين الذين شهدوا مراسم تنويجه في مسجد أبي أيوب الانصاري"⁽²⁴⁾.

وعلى الفور بدأت - في رأي بلنت حملة دعائية للترويج لشعارات الجامعة الإسلامية على نطاق واسع وأرسلت البعثات إلى مختلف الجهات، وصارت الخطب تلقى باسم الخليفة والدعاء له في كل مكان، كما أصبح شيخ الإسلام والمفتي من بين أقرب مستشاري السلطان، ولم يحظ ذلك بتعاطف العلماء الأتراك وحدهم وإنما في مختلف الأوساط الإسلامية، وصار ينظر للسلطان باعتباره حامي الشريعة والمدافع عن حرمتها، ثم جاءت المقاومة ضد الفرنسيين في شمال إفريقيا ليضفي المزيد من الحماسة للدفاع عن الخلافة باسم الإسلام، ولم يعد الفقه الحنفي وحده القوة الداعمة للدولة وإنما انضم إليه أيضاً فقهاء المالكية⁽²⁵⁾.

وعلى الرغم من ذلك فإن النجاح لم يكن حليفاً تماماً للسلطان العثماني، بحسب بلنت الذي أشار إلى تداول الكثير من العلماء لفكرة أن السلطان عبدالحميد يجب أن يكون آخر الخلفاء لآل عثمان لتعود الخلافة إلى منبعها، وأن القضية هي من يكون جديراً بالخلافة ويحظى بالقبول في العالم السني⁽²⁶⁾.

وفي خطوة إضافية راح بلنت يمعن في استقصاء البدائل والمرشحين لتولي الخلافة الجديدة، وكرس الفصل الثالث برمته الذي حمل عنوان "مكة الحاضرة الحقيقية" لمناقشة تلك القضية، وطرح أسماء مرشحين عدة في هذا الصدد، كالأشراف في مكة، وأسرة محمد علي في مصر، كما أشار إلى الأمير عبدالقادر

الجزائري والسنوسي وسلطان المغرب، وإن كان - قد اعتبر - في نهاية المطاف "أن الفرصة مواتية لأشراف مكة، خاصة أنه لا يوجد بها مسيحيون ولا يهود وأن هذا هو مستقبل الخلافة"، بحسب رأيه⁽²⁷⁾، كما أن شريف مكة تربطه علاقات جيدة بأوروبا وشاه فارس، وله مصالح تجارية أيضاً مع الهند، ورأي بلنت هنا ينسجم - كما سبقت الإشارة - مع المحادثات السرية بين شريف مكة والحكومة البريطانية آنذاك⁽²⁸⁾.

على صعيد آخر لم يكن حديث بلنت محصوراً في نطاق الرأي والأمنيات فقط، وإنما حاول أن يسهم في تحقيق رؤيته بصورة عملية، أي التبشير بخلافة عربية، فألقى الضوء على صلاته بالدوائر الرسمية في الحكومة البريطانية، وربما بدا مبالغاً في تقديره لدوره في هذا الصدد، إلا أن آراءه في نهاية المطاف لم تكن مجرد مسامرات سائح أو مستشرق متجول في الشرق دون هدف، فأشار إلى لقائه بالسير تشارلز ديك وكيل وزارة الخارجية البريطانية، وعرضه عليه الرحيل إلى نجد ولقاء بن سعود، وقد وافق ديك على الفكرة في أول الأمر وطلب من بلنت معرفة التفاصيل من خلال مدير الخارجية الدائم، وعبر بلنت بوضوح عن مسعاه بشغف وبمسحة رسولية بقوله: "أتمنى اختراق شبه الجزيرة العربية إلى نجد، وربما أجد من بين أتباع ابن عبد الوهاب معلماً يساعدني على حشد العرب في مواجهة الترك، وعندئذ يمكن قيادة حركة إصلاح أقترح أن أكون مسؤولاً فيها عن الجانب السياسي والآخر عن الجانب الديني"، على أن المشروع كان مآله الفشل بحسب قوله؛ لأن الخارجية البريطانية سحبت تأييدها للمشروع⁽²⁹⁾.

ومرة أخرى جدد بلنت سعيه، وكان هذه المرة عن طريق مفاتحة الأمير عبدالقادر الجزائري خلال وجوده بسوريا، والتلويح له بالخلافة، ووافق الأخير على الفكرة شريطة توافر دعم خارجي؛ لأن الدولة العثمانية قادرة على قمع الخارجين عليها، وعرض بلنت الأمر على هاملتون السكرتير الخاص لرئيس الوزراء جلاستون موضحاً أن هذا الإجراء سيكون مواتياً ولاسيما إذا ما حدث ثورة في سوريا، وعلى الرغم من أن الحكومة البريطانية نظرت إلى الفكرة بارتياح فإن رد الخارجية البريطانية كان فاتراً ومثبطاً⁽³⁰⁾.

وبطبيعة الحال عرض بلنت لآراء أبرز معاصريه وأصدقائه، خاصة جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده في قضية الخلافة وسياسات السلطان عبد الحميد، ولا ننسى أن بلنت كانت تربطه صداقة بهما، وقدم دعمه الكامل لهما، ولا سيما في أثناء وجودهما في لندن وباريس، وقد أوضح أن الأفغاني اعتبر ما يتردد الآن من سعي إنجلترا لإقامة خلافة عربية ضعيفة وموالية لها في شبه الجزيرة العربية، قد أتى بنتيجة عكسية، ورفع من مكانة السلطان بصورة لا مثيل لها في الهند⁽³¹⁾.

كما أبدى الأفغاني موافقته بانتقال الخلافة لأطراف أخرى، مثل المهدي، أو شريف مكة، أو إمام اليمن مضيفاً أن الأفغاني قد أوضح له أنه هو الذي اقترح الخلافة على شريف مكة الذي اعتبر أن الأمر - بدوره - مستحيل دون تأييد مسلح، وأن العرب لن يتحدوا مطلقاً إلا تحت راية الدين⁽³²⁾.

أما محمد عبده فقد رأى - من جانبه - ضرورة إعادة تنظيم الخلافة من جديد، وأن العثمانيين وإن كانوا لا يزالون هم الأقوى على الساحة، فإن الوضع إذا استمر على ما هو عليه سيتجه المسلمون حتماً للبحث عن خلافة جديدة، معتبراً أن المهدي سيكون في المقدمة لخلافة عربية.

وبالطبع فإن ترشيح بلنت للأشراف أو غيرهم من الشخصيات العامة وإن بدا مفهوماً فإن وضع المهدي أيضاً في مقدمة المرشحين للخلافة أمر يدعو للتساؤل، وربما يمكن تفسير هذا الموقف من جانب كل من الأفغاني وعبده في ضوء الغموض الذي صاحب ظهور "العروة الوثقى" وما تردد من أنها لم تكن مجرد منبر فكري فحسب، بل كانت أيضاً تنظيماً سياسياً له أغراضه، كما أشيع في هذه الفترة عن وصول محمد عبده إلى مصر سراً وذهابه إلى السودان واتصاله بالمهدي، وثمة ترتيبات كان بلنت طرفاً فيها في محاولة لإقناع بعض الساسة في إنجلترا بذهاب الأفغاني إلى السودان والتفاوض مع المهدي ولا سيما في ظل الحرج البريطاني بعد مقتل غوردون، لكن تلك المحاولات لم يقدر لها الاستمرار⁽³³⁾.

أما عن ردة الفعل في العالم الإسلامي فقد أوضح بلنت أن جميع المدارس الإسلامية سترحب بالخلافة العربية باستثناء العلماء الأتراك، كما أن الشيعة أيضاً

سيقبلون بخلافة قرشية، وإن لم يستبعد حدوث صراعات قد تصبح دموية لاختيار الخليفة، كما أشار - في هذا الصدد - إلى أن الصراع القديم بين الفرق الإسلامية ربما سيطل برأسه مرة أخرى، وسيكون للعناصر المعتدلة والمتطرفة دورها، فضلاً عن دور المال وسطوته مذكراً ومقارناً ذلك في النهاية بالصراعات التي شهدتها الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا خلال القرن الخامس عشر⁽³⁴⁾.

تجديد الفكر الإسلامي: الآليات والأهداف

كانت القضية الأخرى التي استحوذت على اهتمام بلنت بعد قضية الخلافة وتوابعها مسألة الإصلاح والتجديد الديني على المستويين السياسي والاجتماعي، باعتباره حجر الزاوية للنهضة المرتقبة.

والإصلاح - في رأيه - أمر لا مناص منه، فلا "سبيل إلى عزلة العالم الإسلامي حتى لو أراد المسلمون ذلك، مشيراً إلى ما أسماه "بالتقدم العالمي" عاماً بعد عام تقنياً واقتصادياً، والأهم كذلك فكرياً وثقافياً، كما لم يعد الأمر قاصراً على التهديدات التقليدية للإسلام (استخدم بلنت كلمتي الفرنجة والمسكوفية ربما على نحو ما هو شائع في العربية - يعني بذلك أوروبا وروسيا)، وإنما هناك قادمون جدد على الساحة بحسب قوله مثل ألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية والصين، وكان مثيراً استخدام بلنت حرفياً للتعبير الشائع لاحقاً باسم "الغزو الثقافي Intellectual Invasion" ⁽³⁵⁾.

أما عن المعوقات التي تقف حجر عثرة في سبيل التفاهم مع العالم الإسلامي، ففي مقدمتها - بحسب رأي بلنت - التصور السائد لدى قطاع كبير من الرأي العام والنخبة في أوروبا تجاه الإسلام، ومن ثم فإن ما يدعو إليه من تفاهم "سيكون موضع هجوم واستهجان من قبل مواطنيه وبعضهم لا تعوزه السلطة والنفوذ والتأثير - ممن كانوا على قناعة بأن الإسلام - بمكوناته الذاتية - غير قابل من الأساس للإصلاح والتغيير، بل إنه - في رأيهم - عاجز عن توجيه الحياة الإنسانية لأصحابه بصفة عامة" ⁽³⁶⁾، ولم يكن بلنت مبالغاً فيما ذكر،

ويكفي أن نتذكر في هذا الصدد المقولة الشائعة للورد كرومر في أحد تقاريره الرسمية بأن "الإسلام إن لم يكن ميتاً فهو في طور الاحتضار" (37).

والعراقيل ليست قاصرة على الرأي العام الأوروبي وحده، وإنما أشار بلنت أيضاً إلى أن دعاة التغيير في العالم الإسلامي أقلية، فضلاً عن فشل محاولات التحديث التي تبنتها الدولة العثمانية في الفترة ما بين 1839 و 1869، التي عرفت باسم مرحلة التنظيمات؛ لأنها - في تقديره - عجزت عن إيجاد أرضية اجتماعية تساندها (38).

وعلى الرغم من تلك المعوقات فقد أبدى بلنت تفاؤلاً معتبراً أن الإسلام يتحرك بالفعل مراهناً على دور ما أسماه بـ "التيار الليبرالي"، وهو ليس على غرار التيارات أو الأحزاب الغربية، ولكن يسعى القائمون عليه بإخلاص إلى الإصلاح السياسي والاجتماعي من داخل الإسلام ذاته ووضعه موضع الممارسة العملية بعيداً عن جمود المدارس الفقهية ومراعين في الوقت ذاته الاعتبارات الأخلاقية الكبرى للإسلام (39).

وأضاف بلنت أن هناك طريقتين لتجديد الفكر الإسلامي؛ أولهما يعتمد على العنف، والآخر هو الإصلاح الحقيقي القائم على العقل (40)، واستخدام العنف مرتبط - في تقديره - بالمعتقد الشائع بين مختلف الطوائف الإسلامية حول المهدي المنتظر الذي سيأتي آخر الزمان ليملا الأرض عدلاً، ثم نوه بأن دور المهدي ليس محصوراً في الواجبات الدينية وحسب، وإنما هو - عند الشيعة - سينتقم مما حدث في كربلاء، ثم إن المهدي وهو يؤسس لمملكة جديدة سيقدم ما أسماه بلنت بنموذج "الإسلام الجهادي" كما ذكر حرفياً "The model of Islam militant" وحركته في النهاية ضد جميع حكام السوء بمن فيهم الخليفة أو الأمراء، معتبراً أن هذا النموذج سيكون تكراراً للحركة الوهابية في القرن الثامن عشر، ولكن على نطاق أكبر وأوسع مبدئياً تخوفه من التداعيات الجارية في شمال إفريقيا، وبالطبع فإن انتقاد بلنت الأخير انطوى على مغالطة، فما كان سائداً - آنذاك - هو مقاومة من مختلف الطوائف الشعبية وردة فعل طبيعية إزاء السياسة الفرنسية وأساليبها القمعية وليس عنفاً غير مبرر (41).

واعتبر بلنت أن الصعوبة الرئيسة لنموذج المهدي "ليست في بدايته ولا في الجوانب الأخلاقية المصاحبة له، وإنما في طبيعة البرنامج الكامل الذي يقوم عليه، وحجر الزاوية فيه الدخول إلى مكة؛ فمن دون الوصول إليها لن تكون مهمته قد اكتملت، ولا يخفى ما يكتنف ذلك من أخطار سياسية واقتصادية،" على أن بلنت قد اعتبر أن النموذج السابق لن يحقق نجاحاً كبيراً بل سيكون تأثيره محدوداً، وسيقدم دفعة فقط لأصحابه في المجال الروحي⁽⁴²⁾.

أما الإصلاح القائم على العقل فهو الذي سيكتب له السيطرة، وهو - في رأيه - قد بدأ طريقه بالفعل ولن يكون مجرد ردة فعل روحية سرعان ما تزول، بل سيكتمل تدريجياً دون ما حاجة للعنف؛ فهذه هي سنة التقدم التي عرفتها جميع الشعوب ولا يمكن استعادة الماضي.

وبعد استعراض تاريخي لظهور المذاهب الإسلامية انتهى بلنت إلى أن جوهر "الإصلاح المرتقب يعتمد على تجديد الفكر الإسلامي وفتح باب الاجتهاد الذي تراجع منذ القرن الحادي عشر"⁽⁴³⁾، ولحسن الحظ فإن الجيل الحالي من علماء الإسلام يدرك حتمية هذا التغيير للخروج من المأزق القائم عندئذ، ومواجهة مستجدات العصر، ومن المؤشرات على ذلك القبول بوجود الأجانب في العالم الإسلامي وقرب إلغاء تجارة الرقيق⁽⁴⁴⁾.

أما العقبة الكبرى التي تعترض تجديد الشريعة - بحسب قوله - : "فهي الشريعة الإسلامية بوضعها الحالي"، واستدرك بلنت أن "الشريعة - في ذاتها - تشريع ممتاز في تنظيم العلاقة بين الإنسان وربه ولكنها غير ملائمة لبعض جوانب الحياة الحديثة"، كما ردد بلنت - دون تمحيص - بعض المقولات التي طالما روجها البعض ضد الإسلام مثل قوله إن الإسلام قد "قدم نموذج دولة الحرب والقبول بالرق"، كما دعا بلنت إلى ضرورة تعديل قواعد الزواج والطلاق، مضيفاً أن التغييرات المطلوبة قادمة لا محالة إن عاجلاً أو آجلاً، وأن الكثير من العلماء يدركون ذلك لكنهم يرغبون في إضفاء الشرعية عليها من جهة، وأن تكون تدريجية وليست دفعة واحدة من جهة أخرى⁽⁴⁵⁾.

كما أن العالم الإسلامي - في رأيه - لا يزال مفتقراً لسلطة عامة تدفع

بالتغييرات المطلوبة وتقوم بتعميمها على جميع المسلمين، مشيراً إلى تعدد الفتاوى من مكان إلى آخر وتضاربها في بعض الأحيان، ثم قدم بلنت ترجمة لبنود التعاهد الذي أقره الرسول (ﷺ) مع اليهود بالمدينة داعياً إلى إحياء هذا النموذج وإلى التعايش السلمي بين الإسلام وأوروبا، وطى صفحة الصراع الديني بينهما⁽⁴⁶⁾.

المصالح البريطانية في العالم الإسلامي

لم يدخر بلنت جهداً في استعراض خريطة المصالح البريطانية في العالم الإسلامي، مستنداً في ذلك إلى دعاوى تاريخية غير دقيقة، ومحاولاً تجميل صورة إنجلترا بكل السبل؛ فهي - في تقديره - "لم تلعب دوراً في الحروب الدينية الأوروبية تجاه الدولة العثمانية ومصالحها مختلفة عن باقي أوروبا الكاثوليكية، كما أن علاقاتها بالعالم الإسلامي غير مشوبة بذكرات المرارة والانتقام، ومن ثم فهي قادرة على التعامل مع العالم الإسلامي سياسياً ودينياً بروح ليبرالية قوامها التعاون الاقتصادي وليس الغزو العسكري، وربما لا ينافسها في هذا الصدد سوى ألمانيا"⁽⁴⁷⁾.

وزعم بلنت أنه باستثناءات قليلة في السنوات الأخيرة فإن الأمم الإسلامية ترى في بريطانيا شيئاً مختلفاً عن باقي أوروبا المسيحية لا تعتريه روح عدائية، بل مضى قائلاً: "إن الصورة الشائعة للإنجليز في العالم الإسلامي أنهم "موحدون" ولا ينظر إليهم على أنهم مشركون"⁽⁴⁸⁾، وحتى في الهند فإن الموقف من الحكم البريطاني ليس عدائياً، بل إن مسلمي دلهي والبنجاب يعتبرونه أفضل من حكم الهندوس، حيث يحظون على الأقل بحماية مقدساتهم الدينية⁽⁴⁹⁾.

ولاشك أن ما سبق هو تجاهل عن عمد من جانب بلنت، فما كان يخفى عليه سعي بريطانيا المتواصل للحفاظ على مصالحها على حساب الدولة العثمانية، وتأمين إمبراطوريتها في الهند، ومن قبل أدت دوراً رئيساً في تصفية مشروع محمد علي، وذاق مسلمو الهند الأمرين في ظل الحكم البريطاني، كما أن الخلاف وتضارب المصالح بين إنجلترا وغيرها من القوى الأوروبية الكبرى أمر منطقي في ظل السباق الاستعماري المحموم آنذاك.

وإذا كان بلنت قد روج لقبول بريطانيا وتفهم مصالحها في العالم الإسلامي بشتى الطرق فإنه قد أفصح - في صراحة مفردة - ربما عن أهم ثوابت بنية الخطاب الأوروبي تجاه الإسلام، كما فسر - إلى حد كبير - بعض الظواهر التي تطفو على الساحة عندئذ، والتي لا تزال عصية على الفهم والتبرير، كما عرى - على نحو واضح على الأقل - جانباً خافئاً من الذاكرة الجمعية الأوروبية تجاه الإسلام بقوله: إنه "رغم التغيرات الطارئة التي تركت أثرها على الفكر الديني لكاثوليك غرب أوروبا، ورغم الحريات العامة والتسامح فإن العداء المشوب بالخوف من الإسلام، لم يخف كلفة حتى وإن كان كامناً، فليس هناك أمة من الأمم التي دخلت في صدام مباشر مع الإسلام سواء في الشمال أو الغرب قد غيرت من سياستها تجاه الإسلام، حتى إن أهدافها لم تتوقف عند استعادة جميع الأقاليم التي كانت تشكل الإمبراطورية الرومانية تارة تحت راية الصليب وتارة أخرى تحت راية الحضارة" (50).

وفي موضع آخر راح بلنت يتنبأ بمآل العالم الإسلامي عقب سقوط الخلافة بنبرة من التعالي والتفوق الأوروبيين، ولا تخلو أيضاً من روح التشفي متجاهلاً حديثه السابق عن التعايش السلمي بقوله: "يجب أن يعد نفسه (العالم الإسلامي) للخسارة المتوقعة ليس فقط لنفوذه وقوته السياسية في أوروبا وغرب آسيا، ولكن أيضاً على مستوى تعداد المسلمين في الأراضي العثمانية التي سوف تؤول إلى روسيا، وعندها - على حد قوله - : "سيكون انتقام التاريخ غريباً من الأتراك العثمانيين الذين ظلوا لقرون طويلة الرمز الأساسي للإسلام في أوروبا، فهل سيأتي يوم يصبح فيه هؤلاء غير مسلمين، إنه انتقام ربما سيراه أطفالنا وربما أحفادهم" (51).

ولعل المقولة السابقة تجسد - إلى حد ما - جذور ما يعرف بالإسلاموفوبيا، ليس فقط في الماضي والحاضر وربما الأخطر في المستقبل.

وعاد بلنت ليخفف من وطأة حديثه السابق معتبراً أن "سقوط استانبول لا يعني سقوط الإسلام وحتى فقدان عشرين مليون مسلم لا يؤثر كثيراً على

الجسد الإسلامي، فالقاهرة أو مكة قد تحل محل استانبول، والعرب سيحلون محل الأتراك" (52).

وفي خطوة أكثر تحديداً واصل بلنت استشرافه للمعالم العامة للإمبراطورية البريطانية معتبراً أنها القطب الذي سيستظل به العالم الإسلامي في المستقبل المنظور؛ ففي "ظل الفوضى العارمة التي ستعقب سقوط الخلافة العثمانية، فإن إنجلترا هي الدولة التي سترنو إليها الأبصار في العالم الإسلامي حيث سيجد النصيحة والحماية".

كما عاد يكرر مزاعمه حول فضائل الحكم البريطاني في الهند "فمسلمو الهند وهم الأكثر عدداً وثراء سيتطلعون للتاج البريطاني لاستعادة شيء من مجد المملكة المغولية، وبدورها فإن الحكومة البريطانية ستمنحهم القوة والفرصة التي لم تمنحها أية حكومة مسيحية من قبل، وأكد أن موقف إنجلترا من هذه المهمة سيكون مفصلياً، وعليه، سترتب مستقبلها ليس في الهند وحدها وإنما في جميع آسيا".

كما نوه بلنت بأهمية حماية إنجلترا لوفد الحج الهندي مقدراً عدد المسلمين في الهند بنحو واحد وأربعين مليوناً، ومن ثم ستترك هذه اللفتة أثراً طيباً⁽⁵³⁾، محذراً - في الوقت نفسه - من أن مسلمي الهند قد يصبحون أداة في أيدي أعداء إنجلترا ولاسيما أن السلطان العثماني مستعد للتعاون مع القوى الدولية الأخرى، وفي مقدمتها روسيا أو فرنسا أو ألمانيا، وجميعهم ينظرون بعين الحسد للإمبراطورية البريطانية في الهند.

والواقع أن تشديد بلنت على هذا النحو وتحذيره من مغبة تمرد المسلمين الهنود وخروجهم عن السيطرة أمر مفهوم؛ فقد سعت الحكومة البريطانية بعد اغتيال الشريف الحسين بن محمد بن عون وتعيين الشريف عبد المطلب بن زيد الفرع الآخر المناوئ لآل عون، إلى بث وكالة سرية لمراقبة الأوضاع، خاصة التأثير والدعاية لفكرة الجامعة الإسلامية بين أوساط وفد الحج الهندي بعد أن سعت للحيلولة دون اختيار عبد المطلب؛ لأنه أكثر تشدداً في رأيها دون جدوى⁽⁵⁴⁾.

أما المنطقة الثانية للمصالح البريطانية - من وجهة نظر بلنت - فهي مصر التي اعتبرها بوابة التجارة مع الشرق، ثم ذكر أن ظروف مصر المناخية تحميها من أن تكون مستعمرة أوروبية، وعلى الرغم من وجود الأجانب بالمدن المصرية، فلم يحدث أي تغيير يذكر في الريف، ومصر - في تقديره - كما الهند لن تقبل بأي نموذج حضاري غربي كما سيظل الإسلام بها مهيماً وستبقى ضرورية لنا⁽⁵⁵⁾.

ومثل الجزء الآسيوي لتركيا؛ أي منطقة المضائق الاستراتيجية الجانب الثالث للمصالح البريطانية، وهي "مصونة بحكم المعاهدات التي وقعتها بريطانيا لحمايتها من أي غزو أجنبي" ثم شدد بلنت على أهمية تأكيد الكفاءة العسكرية البريطانية لحماية مصالحها في سوريا والعراق من شبح الأطماع والتهديدات الروسية⁽⁵⁶⁾.

وعلى الجانب الأخلاقي اعتبر بلنت أن من بين المصالح البريطانية أيضاً السعي للقضاء على تجارة الرقيق في إفريقيا، ولن يكون ذلك ممكناً وفعلاً إلا من خلال التعاون مع المسلمين والعرب⁽⁵⁷⁾.

وما فتئ بلنت يستمر في تناقضاته؛ فبعد كل ما طالب به من تغيير في عالم الإسلام من الداخل عاد ليكرر أن من بين "واجبات إنجلترا التعامل مع الإسلام ليس باعتباره شيئاً يجب هزيمته أو تحطيمه، ولكن القبول بوجوده كحقيقة بصرف النظر عن كونه شراً أو خيراً بالمطلق، فالإسلام - في رأيه - يتضمن أشياء جيدة وأخرى سيئة شأنه شأن أي شيء في العالم لكن لا يمكن إغفاله أو تجاهله بحال" ⁽⁵⁸⁾.

الإطار المرجعي لبلنت

بعد استعراض المقولات الرئيسة التي طرحها بلنت في كتابه "مستقبل الإسلام" يصبح التساؤل المطروح في نهاية المطاف هو: ما الإطار المرجعي الذي شكل القنوات السابقة لبلنت ومنطلقاته التي حظي بها الجانب السياسي والدفاع عن مصالح إنجلترا بالأولوية الأولى؟

وبالطبع فإن حديثه عن قرب سقوط الدولة العثمانية لا يمثل جديداً، فلم يكن ضعفها وتراجعها في القوقاز وآسيا الوسطى والبلقان وشمال إفريقيا خافياً على العيان، لكن ربما الجديد الذي قدمه بلنت هو أنه قد رتب على هذا الضعف مباشرة ثورة تأتي بخلافة عربية على أنقاض الخلافة العثمانية في الوقت الذي كانت فيه حركة الجامعة الإسلامية في أوج عنفوانها آنذاك، لدرجة جعلت زعماء الحركة القومية في مصر لا يجاهرون بالانفصال عن الدولة العثمانية، بل اختلطت - إلى حد كبير - الحركة الوطنية بالجامعة الإسلامية حتى إن كرومر قد ذكر في أحد تقاريره أنه من الصعوبة بمكان أن نقرر أين تبدأ إحداهما وتنتهي الأخرى، معتبراً أن فكرة الجامعة الإسلامية أحد المتغيرات المهمة التي غيرت من حالة الركود التي اعترت الحياة السياسية في مصر⁽⁵⁹⁾.

وقد ألمح البعض - استناداً إلى يوميات بلنت غير المنشورة - أنه ربما قد تأثر بنموذج الشاعر بيرون "Byron" جد زوجته، الذي انضم للثوار دفاعاً عن استقلال اليونان وأراد أن يعيد هو الآخر الكرة، ولكن هذه المرة مع العرب متأثراً بالتقاليد العربية خلال رحلاته المتصلة للشرق⁽⁶⁰⁾.

ومن الصعب قبول ما سبق؛ فاستقرار المصالح البريطانية وتأمينها في العالمين العربي والإسلامي حظي باهتمام بلنت بالدرجة الأولى على أية نظرة رومانسية تجاه الشرق.

ومن جهة أخرى فإن بلنت نفسه أشار إلى أنه لا يتذكر على وجه التحديد من صاحب التأثير عليه في قضية الخلافة، أهو مالوكم خان (1833-1903) أم لويس صابونجي (1838-1931)⁽⁶¹⁾، والأول كان من أصول أرمنية ثم اعتنق الإسلام، وكان في خدمة البلاط الفارسي، ثم صار سفيراً متجولاً في أوروبا، واكتسب شهرته لتبنيه النهج الغربي في الإصلاح في إيران، وقد أصدر مجلة "قانون" Qanun منذ عام 1890، ولم يذكر شيئاً عن حتمية وجوب خلافة عربية تحل محل الخلافة التركية، بل إنه حينما أثير الحديث عن المركز الذي يمثل وحدة العالم الإسلامي لم يتردد في أن يجعل مكة على الرغم من مكانتها تالية في الترتيب لاستانبول⁽⁶²⁾.

أما لويس صابونجي فقد كان قساً سابقاً للكاتوليك في سوريا، وتنحدر أصوله من ديار بكر، وقد ترك بيروت عام 1874 متجهاً إلى لندن، وظل بها على نحو دائم إلى عام 1880، وأصدر بها صحيفة "النحلة" وربما كانت بتمويل من الخديوي إسماعيل وهو في المنفى، وقد حملت بعنف على السلطان عبد الحميد واعتبرته مغتصباً للقب أمير المؤمنين⁽⁶³⁾.

كما كان صابونجي مسؤولاً عن إعطاء دروس بالعربية لزوجة بلنت، وربما أثار معه قضية الخلافة وأنها ليست بالضرورة قصراً على البيت العثماني، وقد توطدت العلاقة بينهما حينما عمل صابونجي سكرتيراً لبلنت الذي صحبه معه في رحلاته إلى الشرق، وأوفده بلنت في مهام وحده إلى مصر؛ حيث التقى زعماء الثورة العربية، وربما أقنع بلنت بأن وجود خلافة عربية يعزز ويدعم موقف إنجلترا في الهند، كما أن حماية بريطانيا بدورها لهذه الخلافة سيضمن لها مصالحها مهما بلغت قوة الإسلام في المستقبل، ولا يغفل في هذا السياق الأثر العميق لصداقة بلنت لجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، سواء فيما يتعلق بقضية الخلافة أو الدعوة لتجديد الإسلام⁽⁶⁴⁾.

ويبدو أن ما كتبه بلنت كان مألوفاً لدى الرأي العام البريطاني آنذاك؛ فقد ظهرت بعض المقالات في التايمز اللندنية بوساطة الصحفي براد وود Bird wood (1832-1917) صاحب الخبرة الطويلة في شؤون الهند، وقد ذهب مبكراً منذ عام 1877 عقب الحرب الروسية التركية إلى أن الخلافة العثمانية فقدت أهليتها، وأن السبيل الأمثل لاستعادة كرامتها هو أن يتولى أمرها شريف مكة في الوقت الذي أكد فيه أنه ليس هناك سند لادعاء العثمانيين بالخلافة، ولم يخف أن اعتبارات المصالح البريطانية تملي ذلك، وأهمها ضمان ولاء مسلمي الهند وضمان انتقال الخلافة إلى أيد متعاونة، ولم يشر بلنت إلى مقالات براد وود⁽⁶⁵⁾، وإن كان قد ذكر على لسان شخصية هندية لم يفصح عنها أن دعوة السلطان عبد الحميد للجامعة الإسلامية لم تحظ بالقبول الكافي وأن النية معقودة على توزيع العديد من المنشورات خلال موسم الحج، وهذه قد تكون لها تداعياتها وأثرها الفعال، ومن ثم كانت دعوته التي سبق الإشارة إليها بأن تأخذ حكومة الهند البريطانية زمام المبادرة وتقدم الحماية والتسهيلات لوفد الحج الهندي⁽⁶⁶⁾.

ومن بين المصادر المهمة لبلنت لقاءه - كما سبق القول - في ديسمبر عام 1880 القنصل البريطاني James zohrab المعين في جدة منذ عام 1878، وقد استفاضة رسائل هذا القنصل إلى الخارجية البريطانية في الحديث عن المكانة الدينية لشريف مكة في العالم الإسلامي، مبالغاً بأنها تضاهي مكانة السلطان العثماني، كما دعا في تقاريره إلى فصل الحجاز عن الدولة العثمانية ليكون تحت النفوذ البريطاني.

ونقل القنصل البريطاني عن شريف مكة أن هناك جمعية سرية قائمة في مكة، ولها فروع في أرجاء العالم الإسلامي تسعى إلى تحرير المسلمين من السيطرة المسيحية، وأن هناك عدم رضا عن السلطان العثماني بعد الحرب مع روسيا، وأنه بانسحابه ووقوعه تحت سيطرة القوى المسيحية لم يعد يمثل - في تقديرهم - الحقيقة الإسلامية ولا خلافة الرسول، وكان الاختيار الأول للخلافة البديلة في دمشق، ولكن عدل عنها لصعوبة الدفاع عنها أمام القوى الغربية، ثم وقع الاختيار على المدينة المنورة لمكانتها الدينية ولعدم وجود يهود ولا مسيحيين بها، كما ذكر أن موسم الحج هو المناسبة التي يلتقي فيها زعماء تلك الجمعية دون إثارة الشكوك من أحد⁽⁶⁷⁾، ولا شك أن ما سبق لم يكن خافياً على بلنت الذي كتب مقالاته عقب عودته من رحلة الحجاز مستفيداً مما رآه وسمعه من القنصل البريطاني هناك مع عدم إشارته لذلك.

ومن الصعوبة بمكان تقدير صدق ما طرحه بلنت في العالم الإسلامي، وربما كان مصطفى كامل من أوائل من لفت الانتباه لكتاب "مستقبل الإسلام"، ووجه له انتقادات لاذعة في كتابه "المسألة الشرقية"؛ فقد ألمح إلى بيت الشعر الذي وضعه بلنت على غلاف كتابه باللغة العربية ونصه:

لا تقنطوا الدر ينشر عقده ليعود أحسن في النظام وأجملا

معتبراً أن هذا البيت قد عبر عن المضمون الرئيس للكتاب، وهو الدعوة لإسقاط الخلافة العثمانية، وأضاف أن المقصود هو "أن هدم الدولة العثمانية لا يضر بالمسلمين بل إن هذا العقد العثماني ينشر ليعود عقداً عربياً أحسن

وأجمل، ولكن ما لم يعلن عنه بلنت هو أن قومه يريدون هذا العقد العربي في جيد بريطانيا لا في جيد الإسلام" (68).

واعتبر مصطفى كامل أن بلنت أراد إحياء مشروع نابليون القديم في خلافة العالم الإسلامي وأنه قد لفت انتباه قومه إلى مشروع هم القائمون به الآن، مضيفاً أن واجبات الخلافة على نحو ما طرحها بلنت قاصرة فقط على الجانب الديني أو الروحي، وأنها ستكون بحاجة إلى حليف ينصرها ويساعدها، وما ذلك الحليف سوى إنجلترا، وعلى حد قوله، فإن بلنت - في نهاية المطاف - "ما هو إلا معبر عن آمال قومه وأبناء جنسه. . ولم يبق للمستر بلنت إلا أن يقول إن الخليفة يجب أن يكون إنجليزياً" (69).

وأشار مصطفى كامل في موضع آخر إلى أن السعي لخلع السلطان عبد الحميد سيؤدي إلى عواقب وخيمة في جميع أرجاء العالم الإسلامي، وتساءل "من ذا الذي يرضى أن تسقط أوروبا السلطان العثماني وتتدخل في شؤونه إلى هذا الحد؟ ومن ذا الذي يرضى من المسلمين أن تنزل أوروبا المسيحية خليفة الإسلام عن عرش خلافته؟"

كما كرر مصطفى كامل أن زوال الخلافة العثمانية، سيكون "مجلبة للأخطار ومشعلة لنيران يمتد لهبها بالأرض شرقها وغربها، وأن هدم هذه المملكة القائمة بأمر الإسلام يكون داعياً لثورة عامة من المسلمين" (70).

وفي النهاية ربما يرد على أذهان البعض أن "بلنت" قد نظر بعين العطف للحركة الوطنية المصرية، وكانت تربطه علاقات متينة مع رموزها، وكثيراً ما كتب في الصحف البريطانية عن وجوب خروج إنجلترا من مصر، ودخل في معركة حامية مع اللورد كرومر عقب حادثة دانشواي؛ حيث اتهمه بأنه وراء تحول الوجود البريطاني في مصر من وجود مؤقت إلى احتلال دائم، كما كان لحملاته الصحفية صداها داخل البرلمان البريطاني (71).

وعلى الرغم من صحة ما سبق فإن الخلاف الحاد والمعلن بين "بلنت" واللورد كرومر كان محصوراً - فيما يبدو - في نطاق الوسائل لا الأهداف،

فكلاهما انطلق من أرضية واحدة وهي أن أوروبا القوية والمتحضرة يجب أن تمد يد المساعدة لإصلاح العالم الإسلامي العاجز عن القيام بذلك وحده، وكلاهما أيضاً - بدرجات متفاوتة - جعل من نفسه متحدثاً نيابة عن العرب والمسلمين؛ ففي حين أعطى كرومر الأولوية لضبط الجهاز البيروقراطي (في حالة مصر) وضمان كفاءته بوصفه صوت النظام - على حد قوله - انحاز بلنت بحماسة إلى فكرة إحلال خلافة عربية لقيادة العالم الإسلامي بديلاً عن الخلافة العثمانية القائمة.

وكان جل انتقاد بلنت لكرومر هو استحوذه على السلطة بطريقة فجأة، وتجسيده لنمط الاستشراق الرسمي، كما بالغ بلنت في إيهام أصدقائه بنفوذه لدى الحكومة البريطانية معتقداً - على ما يبدو - أن معرفته بالشرق ورحلاته المتوالية، تؤهله لأن يلعب دوراً وأن يملي على الحكومة ما يجب القيام به، فضلاً عن أن ما أشار إليه حول إصلاح الفكر الإسلامي كان بنبوة هادئة نسبياً، وهو ما كرره كرومر بصراحة فجأة في تقاريره الرسمية.

ومن ثم يجب أن يوضع خلاف الرجلين في إطاره الصحيح؛ فكلاهما سعى لخدمة الإمبراطورية البريطانية بطريقته، فكان كرومر يرى أن آراء بلنت ستؤدي إلى المزيد من التدخل الأوروبي في مصر وشل يد بريطانيا، خاصة أن إلغاء الامتيازات الأجنبية كانت أحد أهدافه الرئيسة لإطلاق يده بحرية في الشؤون المصرية دون منغصات، كما كان كلاهما يتسابق للحصول على دعم الصحافة والخارجية البريطانية، وفي مواجهة خصومه أو عزز كرومر وشجع ملنر على إصدار كتابه المعروف *England in Egypt*، الذي دافع فيه عن سياسات كرومر وإصلاحاته المالية لتحسين أوضاع الفلاحين.

وبطبيعة الحال كان لكلا الطرفين أنصار، ولكن مما لاشك فيه أنهما كانا حريصين على سلامة الإمبراطورية واستمرارها ولم يكونا استثناء في ذلك بل كانا جزءاً من المناخ السائد، فبعد انتهاء خدمة كرومر بمصر وصفه "جراي" بالشخص العظيم الذي لا يمكن أن تقدر خدماته العامة، كما امتدحه آرثر جيمس بلفور زعيم حزب المحافظين آنذاك، ولقبه أيضاً بكرومر العظيم⁽⁷²⁾.

وهكذا فالكل مؤيد للإمبراطورية ولكن بشروط، وما يرغب فيه الجميع هو الصداقة والتعاون مع نموذج بعينه للإسلام، نموذج قد نزع منه الجانب السياسي تماماً والإصلاح المستهدف له - يحيله في النهاية إلى نسق من القيم أقرب لتقاليد الغرب، ولا يمثل أو يحمل شبهة تهديد لمصالحه في المستقبل، وفي فترة لاحقة ستطفو على الساحة الفكرية تصنيفات مختلفة للإسلام (الإسلام السياسي - الإسلام المعتدل - الإسلام الجهادي - الإسلام الصوفي) كرسد لها فيما بعد المراكز البحثية في الغرب والشرق.

خاتمة

كانت المعالم الرئيسة التي طرحها بلنت في كتابه "مستقبل الإسلام" تتمثل في الدعوة لتصفية الخلافة العثمانية على المستوى السياسي باعتبارها معوقاً لتقدم المسلمين والاستبدال بها خلافة عربية، فضل أن يكون مقرها الجزيرة العربية، ولها علاقات جيدة مع الغرب، ولاسيما بريطانيا، وينحصر نفوذها في الجانب الروحي فقط؛ أي تجريدها من أية مقومات سياسية لتكون في نهاية المطاف على نمط البابوية في أوروبا، مناقضاً بذلك ما سبق أن طرحه في مقدمة كتابه حول الطابع السياسي الملازم للإسلام من البداية⁽⁷³⁾.

أما على المستوى الاجتماعي فقد حث على ضرورة الدفع باتجاه تجديد الشريعة الإسلامية إلى أقصى مدى، ووضح أن التجديد المطلوب لا يقف عند حد بعينه وإنما يمتد إلى جميع القضايا ليصبح ملائماً للحياة الحديثة من وجهة نظره، وبطبيعة الحال فإن ما يطرح نفسه بالضرورة هو كيفية الفصل بين الحاجة الفعلية لتجديد الشريعة من جهة، وبين الاقتتات عليها ومسسخها تحت ستار التجديد لتكون مقبولة بحسب المرجعية الأوروبية من جهة أخرى، وهي إشكالية شائكة، كما تناسى بلنت أن نموذج التعاهد الذي استشهد به في صدر الإسلام ودعا إلى إحيائه كان اعترافاً متبادلاً بين المسلمين واليهود للتعايش، وقبول كل منهما للآخر كما هو دون محاولة أي منهما فرض مرجعيته على الآخر واستيعابه.

ولعل اعتبارات السياسي كانت وراء التناقض والخلط الذي صاحب رؤية

بلنت ودعوته للتعامل مع الإسلام كمرجعية خاصة، وحثه في الوقت نفسه على ضرورة - بل حتمية - تغيير الإسلام من الداخل، وهي ثنائية ما انفكت تمثل جزءاً من بنية التيار الرئيس في الخطاب الأوروبي المعاصر المتبني لفكرة الإسلام الطقوسي مجرداً ومحصوراً في دائرة العبادات .

الهوامش والمراجع

- * يدين الباحث بالشكر والتقدير للدكتور عمرو رياض بجامعة ليدن في الحصول على نسخة مصورة من كتاب "مستقبل الإسلام"، فله خالص الشكر والعرفان.
- (1) حوراني، ألبرت: **الإسلام في الفكر الأوروبي**، بيروت: الأهلية للطباعة، 1994، ص 17، جورافسكي، اليكسي: **الإسلام والمسيحية**، ترجمة: خلف محمد الجراد، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، العدد 215، 1996، ص 26-27.
- (2) - Salem, Elie; "The Elizabethan Image of Islam", **Studia Islamica**, No. 22, 1965, PP.45-46.
- رستون، جيمس: **مقاتلون في سبيل الله، صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد والحملة الصليبية الثالثة**، ترجمة: رضوان السيد، الطبعة الأولى، الرياض: مكتبة العبيكان، 2002، ص 36-37.
- (3) يذكر في هذا السياق الأثر الهائل الذي تركته الآداب العربية بوجه عام على الغرب، ولعل المثل البارز في هذا الشأن "ألف ليلة وليلة" منذ ترجمة غالان لها بين عامي 1704 و1717؛ حيث صارت من أقرب وأشهر الوسائل لتكوين خلفية عن الشرق وأهله، وصارت قراءتها طقساً شائعاً لكل من يتجه صوب الشرق، انظر:
- Hachicho, Mohamad Ali: "English Travel Books about The Arab Near East in The Eighteenth Century", **Die Welt Des Islam**, Vol.9, 1964, pp.136-137.
- (4) راجع سيرة وحياة بلنت:
- Longford, Elizabeth, **A pilgrimage of Passion: The Life of Wilfred Scawen Blunt**, London, 1979.
- (5) بلنت، ولفريد سكاون: **التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر**، راجعه ووافق على ما فيه: الشيخ محمد عبده، القاهرة: مكتبة الآداب، 2008، ص 4-5.
- (6) التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر، ص 23-24، وقد ألقى بلنت محاضرة عن تفاصيل رحلته إلى شبه الجزيرة العربية بالجمعية الملكية الجغرافية في فبراير 1880.
- Blunt, W. Scawen, "Visit to Jebel Shammar (Nejd). New Routes Through Northern and Central Arabia", **Royal Geographical Society**, Vol. 2, No. 2, 1880, pp. 81-102.
- (7) لزوجته "آن بلنت" بعض الأعمال، منها "رحلة إلى نجد مهد العشائر العربية"، وقد ترجم إلى العربية أكثر من مرة، منها ترجمة: أحمد إيش، دمشق: دار المدى، 2005.

- (8) الجدير بالذكر أنه قد صدرت ترجمة أوردية لهذا الكتاب، وقد حذفت فيها بعض الفقرات الخاصة بالسلطان عبد الحميد إرضاء لمشاعر الهنود الأكثر حماسة لفكرة الجامعة الإسلامية:
- Kramer, Martin: **Islam Assembled, The Advent of The Muslam Congresses**. Columbia University Press, 1986, p.18.
- (9) - Blunt, Scawen: **The Future of Islam**, London.Kegan, Paul, 1882, p.vi.
- (10) - The Future of Islam, p.vii.
- شلش، علي: **الأفغاني وعنده وس**. بلنت، القاهرة: كتاب الهلال، 421، 1986، ص 74.
- (11) - The Future of Islam, pp.vii - ix
Buzpinar Tufan, "Vying for Power and Influence in Hijaz Rule, The Last Emirate Abdulmuttalib and The British (1880-1882)", **Muslim World**, N.1, jan, 2005, p.4.
- (12) - The Future of Islam,. p.x.
- (13) ألمح البعض إلى أن " المحمدية " هي التسمية الأوروبية والعلائية والمهينة للإسلام باعتباره ديناً منتحلاً أو هرطقة، راجع: سعيد، إدوارد: **الاستشراق، المعرفة، السلطة**، ترجمة: كمال أبو ديب، الطبعة الثالثة، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ص 90 - 94.
- (14) - The Future of Islam, p.203.
- (15) الاستشراق، ص 89.
- (16) - The Future of Islam, p.7
- (17) The Future of Islam, pp.9-10 راجع على سبيل المثال: تقدير جب؛ حيث قدر عدد المسلمين في ثلاثينيات القرن العشرين بنحو مائتين وأربعين مليوناً، جب وآخرين: **وجهة الإسلام، نظرة في الحركات الحديثة في العالم الإسلامي**، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريذة، د.ت، ص 8، والجدير بالذكر أن الحج كان أبرز المناسبات التي اهتم بها الرحالة على تباين مشاربهم، راجع على سبيل المثال: عبد العزيز دولتشين: **الرحلة السرية إلى مكة المكرمة 1898-1899**، ترجمة: يغم ريزفان، الطبعة الثانية، بيروت: دار التقريب، 1993، ص 20-21.
- (18) - The Future of Islam, pp.32-33
- (19) اعتبر البعض أن الجذور السياسية للجامعة الإسلامية ربما عادت إلى معاهدة Kucuk Kaynarac التي عقدت بين روسيا والدولة العثمانية عام 1774؛ إذ تضمنت فقرة تم فيها الاعتراف رسمياً بحق السيادة الروحية للسلطان العثماني على جميع المسلمين خارج نطاق الإمبراطورية العثمانية، وكان أول استخدام لمصطلح الجامعة الإسلامية على نحو موسع من جانب الصحفي الفرنسي جابريل شارم الذي أصدر كتاباً بنفس العنوان، لاقى ذيوماً كبيراً، وصار المصطلح متداولاً في الصحف البريطانية منذ عام 1880،
- Landau, Jacob M: **The Politcs of Pan-Islam, Ideology and Organization**, Oxford, 1994, pp.2-10
- (20) - The Future of Islam, p.52.

- (21) - The Future of Islam, pp.79-80.
- (22) - The Future of Islam, p.81.
- (23) - The Future of Islam, pp.82-83.
- (24) - The Future of Islam, p.85.
- (25) - The Future of Islam, pp.86-87.

والجدير بالذكر أنه كان هناك قلق متزايد لدى السلطات الفرنسية حتى إنها خصصت وحدة لمراقبة نشاط دعاية الجامعة الإسلامية في صفوف الطرق الصوفية التي لعبت دوراً كبيراً في المقاومة المسلحة ضد الفرنسيين :

- The Politics of Pan-Islam, p.53.
- (26) - The Future of Islam, pp. 93-94.
- (27) - The Future of Islam, p.118.

(28) وقد ألمح بلنت إلى أنه كانت هناك محاولة لإمكانية تنصيب شريف مكة آنذاك (الحسين بن محمد بن عون) للخلافة بعد الحرب الروسية التركية، وإن عاد ليقول: إنه ليس متأكداً من أن الشريف كان منخرطاً في الدعوة للخلافة خلال هذه الفترة، على الرغم من حرصه على إثبات أنه وعائلته صديق للإنجليز في كل المناسبات، وربما كان ذلك في رأيه سبباً كافياً لتدخل السلطان عبدالحميد في اغتياله خاصة أن القاتل كان منتسباً للدراويش الذين كانوا أداة - بحسب قوله - في يد السلطان في مواجهة خصومه، The Future of Islam, p.122.

- (29) التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر، ص 66-67.
- (30) التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر، ص 69، ص 90.
- (31) الأفغاني وعبد، ص 16-17.
- (32) الأفغاني وعبد، ص 51.
- (33) التاريخ السري، ص 144، وراجع: محمد عماره: الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، ج 1، الطبعة الثانية، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1979، ص 70-71 وأيضاً تشارلز آدمس: الإسلام والتجديد في مصر، نقله للعربية: عباس محمود العقاد، القاهرة، لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية، د.ت، ص 55، وتجدر الإشارة إلى أن إحلال خلافة عربية محل الخلافة العثمانية كان لها أنصارها في العالم العربي، ولاحقاً كتب محمد رشيد رضا في خطبة ألقاها بمنى في عيد الأضحى عام 1916: "كلنا يعلم أنه لا يوجد في الدنيا كلها مكان يصلح لتأسيس دولة إسلامية تخلف الدولة العثمانية إذا وقع بها ما نخشاه عليها سوى جزيرة العرب وما يتصل بها من البلاد الإسلامية"، رضا محمد رشيد: الإمامة أو الخلافة العظمى، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، 1994، ص 94.

- (34) - The Future of Islam, p.131.
- (35) - The Future of Islam, p.133.

- (36) - The Future of Islam, p.134.
- (37) - Cromer: **Modern Egypt**. London, Vol2, 1908, p.134
- (38) - The Future of Islam, p.134
- (39) The Future of Islam, p.135 وكثيراً ما سعى بلنت لمقارنة القائمين على الإصلاح في العالم الإسلامي بمصلحي أوروبا في القرن الخامس عشر، وأنهم "بيورتان الشرق" ومن ثم فإن نموذج الإصلاح الغربي وآلياته هو المعتمد كمرجعية دائمة وثابتة، بلنت، ولفريد سكاون: التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر، ص 78.
- (40) - The Future of Islam, pp.144-145.
- (41) - The Future of Islam, pp.148-149.
- (42) - The Future of Islam, p.153.
- (43) - The Future of Islam, pp.157-158.
- (44) - The Future of Islam, pp.161-162.
- (45) The Future of Islam, p.161 ولم يكن ما طرحه بلنت حول الشريعة الإسلامية فريداً في هذا الصدد، بل كان ذلك شائعاً بين العديد من المستشرقين، راجع على سبيل المثال: أطروحات كارل هينرش بيكر وسنوك هيورغرونج وغيرهما، الإسلام والمسيحية، ص 122-123.
- (46) أوضح بلنت - بشكل قاطع - أن واجبات الخلافة العربية المنتظرة ستكون قاصرة على الجانب الروحي فقط، وأن تحالف المسلمين عندئذ سيصبح ممكناً، وسيحقق حلم الجامعة الإسلامية على أساس أخلاقي وليس على النحو الذي يسعى إليه السلطان عبد الحميد، The Future of Islam, pp.189-190.
- (47) - The Future of Islam, pp.191-193
- (48) The Future of Islam, p.193 ولم يكن بلنت هو الوحيد الذي زعم أن العرب يثقون أكثر بالإنجليز عن سائر الأوروبيين، وإنما كرر ذلك آخرون مثل كلود كوندرا، وهو رحالة زار سوريا وفلسطين ومنطقة الفرات:
- Auchterlone, Paul. "From The Eastern Question to The Death of General Gordon, Representations of The Middle East in The Victorian Periodical Press.1870-1885". **British Journal of Middle Eastern Studies**, 28.1, 2001, pp13-14.
- (49) - The Future of Islam, pp.193-194.
- (50) - The Future of Islam, pp.175.176.
- (51) - The Future of Islam, p.183.
- (52) - The Future of Islam, p.188.
- (53) - The Future of Islam, pp.210-211.
- (54) - The Future of Islam, pp.194-195.

وأيضاً، Vying for Power and Influence.

- (55) - The Future of Islam, 198-199.
- (56) - The Future of Islam, p.202.
- (57) - The Future of Islam, pp.172-173.
- (58) عرف كرومر الجامعة الإسلامية في أحد تقاريره الرسمية بأنها "تحالف جميع المسلمين للدفاع ومقاومة القوى المسيحية، وهي تمثل خطراً مستمراً على جميع الأمم الأوروبية التي لها مصالح سياسية في الشرق، وفي مقدمتها بريطانيا، ولهذا يجب وضعها قيد المراقبة". راجع: Foreign Affairs.Vol.15.Britain Egypt and Sudan.1855-1914.1985..Memorandum by Lord Cromer on The Present Situation in Egypt.Doc.150.Sept.8.1906. pp.403-404
- (59) - Islam Assembled, The Advent of The Muslam Congresses, p.10.
- (60) - Islam Assembled, The Advent of The Muslam Congresses, p.10.
- (61) - Kramer, Martin, "Arab Pen, English Purse: The Islamic World Form Classical to Modern Times", **Essays in Honour of Bernard Lewis**, Princeton, 1989, pp.771-780.
- (62) - Islam Assembled, The Advent of The Muslam Congresses, P.11.
- (63) - Islam Assembled, The Advent of The Muslam Congresse, p.12.
- (64) - Islam Assembled, The Advent of The Muslam Congresse, pp.12-13.
- (65) - The Future of Islam, pp.210-211.
- (66) - "Arab Pen, English Purse", pp.13-14.
- ومما يذكر أن الشريف عبدالمطلب رفض الطلب الذي قدمه القنصل البريطاني بجدة للسماح بلبنت بزيارة زوجته الحجاز، وكان رده أنه لا يسمح ما دام هو في السلطة للنصارى بزيارة أي جزء في الحجاز. راجع: Vying for Power and Influence, pp18-19
- (67) كامل، مصطفى: **المسألة الشرقية**، ج 1، الطبعة الثانية، القاهرة: مطبعة اللواء، 1909، ص 27-26.
- (68) المسألة الشرقية، ص 28.
- (69) المسألة الشرقية، ص 180-183 وفي الجزء الثاني ين كتابه أشار مصطفى كامل إلى إيعاز إنجلترا لمن " لا وطن لهم ولا شرف ولا عقيدة بالظعن على جلالة الخليفة الأكبر والسلطان الأعظم وتشويه أعمال الدولة العلية وأحوالها"، ج 2، ص 121.
- (70) - Owen, Roger, Lord Cromer: **Victorian imperialist Edwardian Proconsul**, Oxford University Press, 200, .p.338.
- (71) Victorian imperialist Edwardian Proconsul, p.348 وقد وقف بلفور أمام مجلس العموم في عام 1910 يبرر الوجود البريطاني في مصر بقوله: "نحن هنا في مصر ليس من أجل المصريين

فحسب، مع أننا فيها من أجلهم، نحن أيضاً هناك من أجل أوروبا كلها"، إدوارد سعيد، الاستشراق، مرجع سابق ن ص 65.

(72) أوضح بلنت بشكل قاطع أن واجبات الخلافة العربية المنتظرة ستكون قاصرة على الجانب الروحي فقط وأن تحالف المسلمين عندئذ سيصبح ممكناً وسيحقق حلم الجامعة الإسلامية على أساس أخلاقي وليس على النحو الذي يسعى إليه السلطان عبد الحميد، . Blunt, The Future of Islam, pp.189-190

- The Future of Islam, p.162 (73)